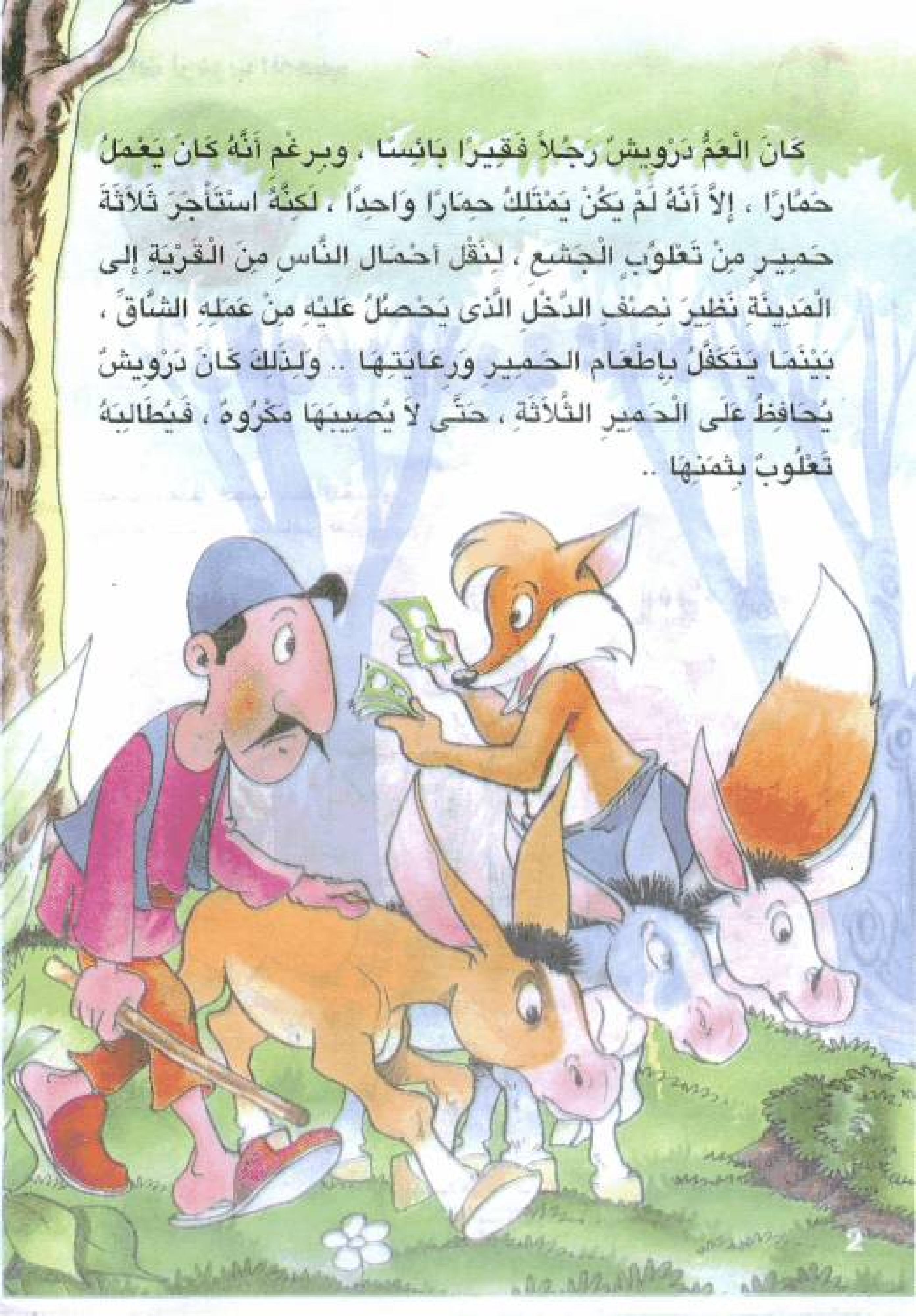




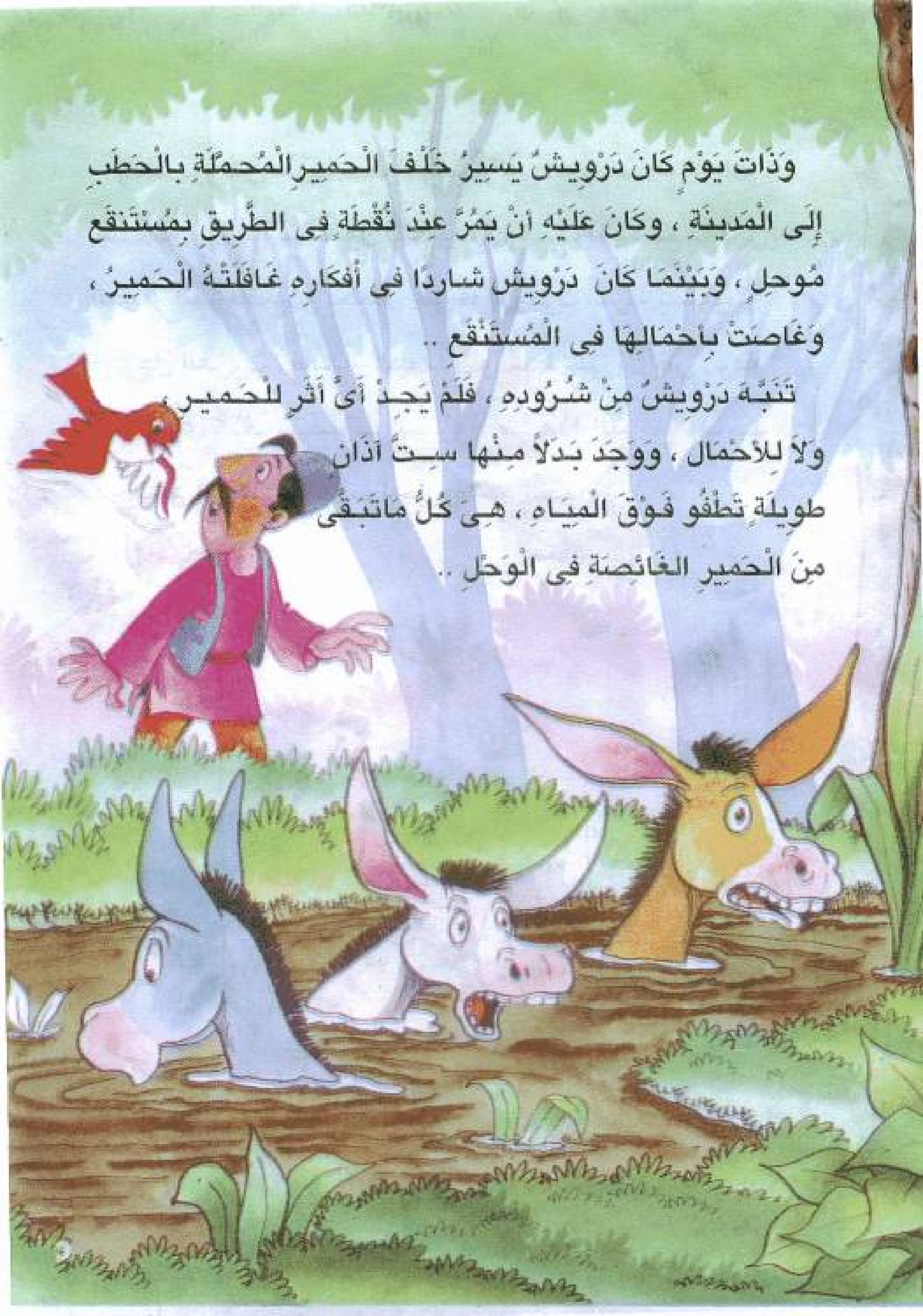
أرنوب يزرع الحمير

بقلم : عبد الحميد عبد المقصود
بريشة : عبد الشافى سيد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



كَانَ الْعَمُّ دَرْوِيشٌ رَجُلاً فَقِيرًا بَائِسًا ، وَبِرَغْمِ أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ حَمَّارًا ، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْتَلِكُ حِمَارًا وَاحِدًا ، لَكِنَّهُ اسْتَأْجَرَ ثَلاَثَةَ حَمِيرٍ مِنْ تَعْلُوبِ الْجَشِعِ ، لِنَقْلِ أَحْمَالِ النَّاسِ مِنَ الْقَرْيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ نَظِيرَ نِصْفِ الدَّخْلِ الَّذِى يَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلِهِ الشَّاقِّ ، بَيْنَمَا يَتَكَفَّلُ بِإِطْعَامِ الْحَمِيرِ وَرِعَايَتِهَا .. وَلِذَلِكَ كَانَ دَرْوِيشٌ يُحَافِظُ عَلَى الْحَمِيرِ الثَّلاَثَةِ ، حَتَّى لاَ يُصِيبَهَا مَكْرُوهٌ ، فَيُطَالِبَهُ تَعْلُوبٌ بِثَمَنِهَا ..



وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ دَرْوِيشُ يَسِيرُ خَلْفَ الْحَمِيرِ الْمُحَمَّلَةِ بِالْحَطَبِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وكَانَ عَلَيْهِ أنْ يَمُرَّ عِنْدَ نُقْطَةٍ فِي الطَّرِيقِ بِمُسْتَنقع مُوحِلٍ ، وَبَيْنَمَا كَانَ دَرْوِيش شارِدًا فِي أفكَارِهِ غَافَلَتْهُ الْحَمِيرُ ، وَغَاصَتْ بِأحْمَالِهَا فِي الْمُستَنْقَعِ ..

تَنَبَّهَ دَرْوِيشُ مِنْ شُرُودِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أيَّ أثَرٍ لِلْحَمِيرِ ، وَلاَ لِلأحْمَالِ ، وَوَجَدَ بَدَلاً مِنْهَا سِتَّ آذَانٍ طَوِيلَةٍ تَطْفُو فَوْقَ الْمِيَاهِ ، هِيَ كُلُّ مَاتَبَقَّى مِنَ الْحَمِيرِ الغَائِصَةِ فِي الْوَحْلِ ..

وَقَفَ دَرْوِيش يَنْدُبُ حَظَّهُ ، وَ يُفَكِّرُ فِى هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الَّتِى حَلَّتْ بِهِ .. مَاذَا سَيَقُولُ لِثَعْلُوبِ ، وَكَيْفَ سَيَدْفَعُ لَهُ ثَمَن الْحَمِيرِ الْغَارِقَةِ ، وَهُوَ يَحْصُلُ عَلَى قُوتِهِ وَقُوتِ أُسْرَتِهِ بِصُعُوبَةٍ ؟

وَحَلَّ الْغُرُوبُ ، فَانْهَارَ الْمِسْكِينُ وَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ ، وَهُوَ لاَ يَدْرِى كَيْفَ يَتَصَرَّفُ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الْمَأزِقِ ، فَأَخَذَ يَدْعُو أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَوْتَ لِيُفَارِقَ هَذِهِ الْحَيَاةَ ..



وَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ سَمِعَ وَقْعَ حَوَافِرِ حِصَانٍ تَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ ، أَعْقَبَهَا سَمَاعُ صَوْتٍ يُنَادِيهِ قَائِلاً :

ـ مَاذَا بِكَ يَا رَجُلُ ، وَلِمَاذَا تَجْلِسُ هَكَذَا حَزِينًا ؟!

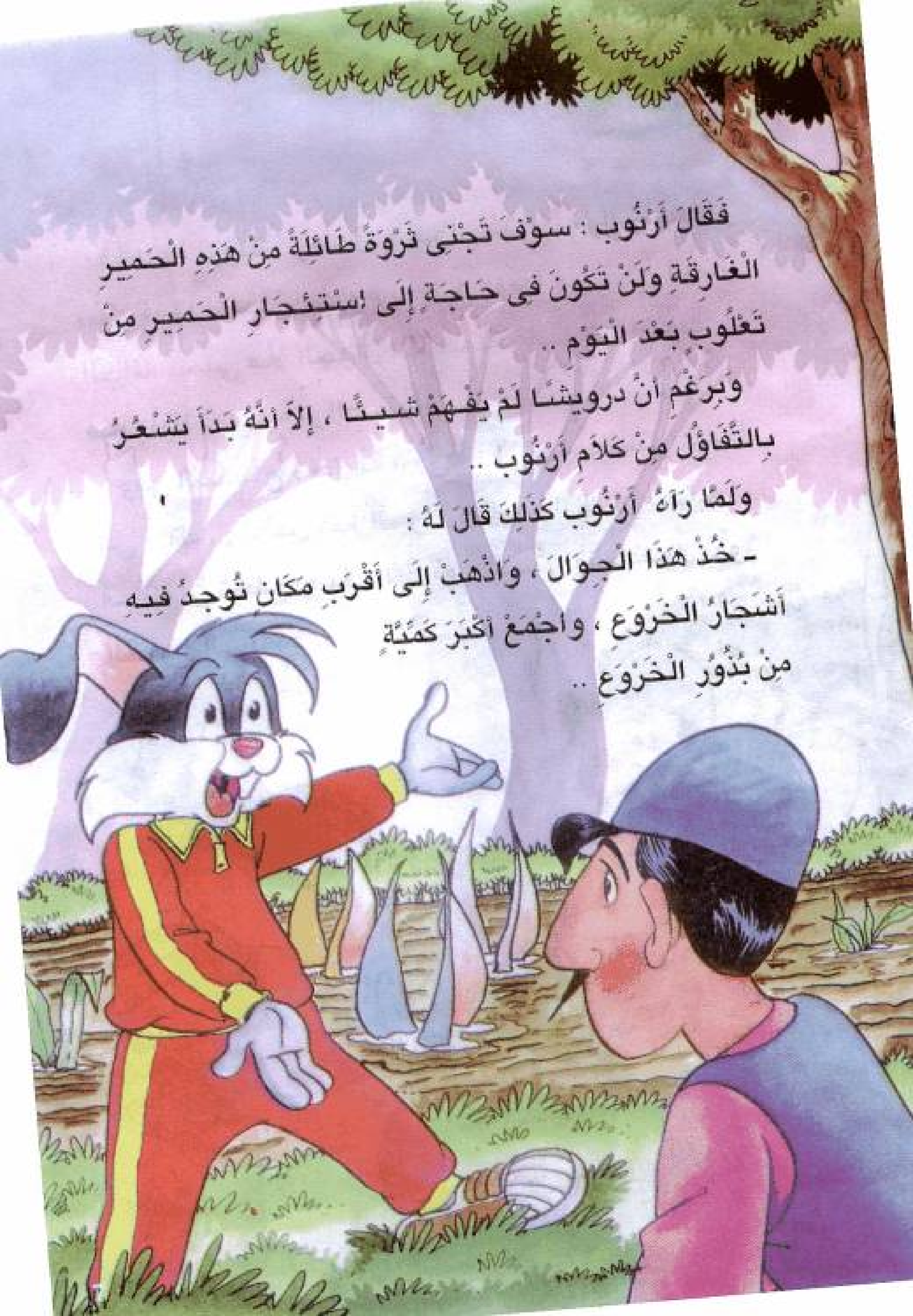
تَلَفَّتَ دَرْوِيشُ خَلْفَهُ ، فَرَأَى فَارِسًا فَوْقَ حِوَارِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْفَارِسُ سِوَى أَرْنُوبٍ نَفْسِهِ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ مَاحَدَثَ لَهُ مِنْ غَرَقِ الْحَمِيرِ فِي الْمُسْتَنْقَعِ ، وَخَوْفَهُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْقَرْيَةِ ، حَتَّى لاَ يُطَالِبَهُ تَعْلُوبُ بِثَمَنِ الْحَمِيرِ ..



نَظَرَ أَرْنُوبُ إِلَى آذَانِ الْحَمِيرِ الطَّافِيَةِ فَوْقَ الْمِيَاهِ ، وَفَكَّرَ قَلِيلاً ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

- أَبْشِرْ يَا رَجُلُ .. لَقَدْ تَحَوَّلَتْ مُصِيبَتُكَ إِلَى مَصْدَرِ سَعَادَةٍ وَثَرَاءٍ لَكَ ..

فَنَظَرَ إِلَيْهِ دَرْوِيشُ مُتَعَجِّبًا : كَيْفَ ؟! وَمِنْ أَيْنَ أُسَدِّدُ لِثَعْلُوبٍ ثَمَنَ حَمِيرِهِ الْغَارِقَةِ ..

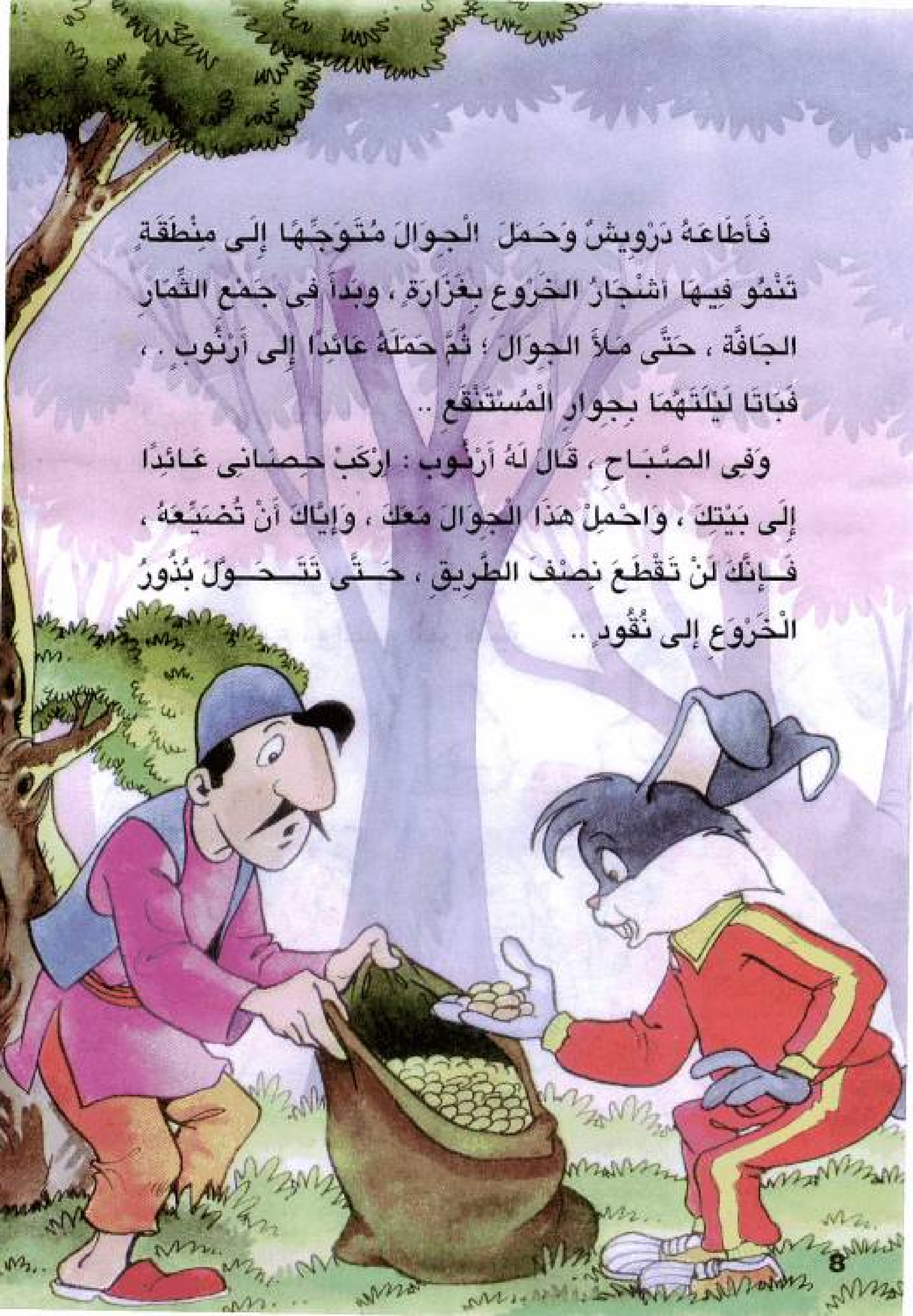


فَقَالَ أَرْنُوب : سوْفَ تَجْنِى ثَرْوَةً طَائِلَةً مِنْ هٰذِهِ الْحَمِيرِ الْغَارِقَةِ وَلَنْ تَكُونَ فِى حَاجَةٍ إِلَى اسْتِئْجَارِ الْحَمِيرِ مِنْ تَعْلُوبِ بَعْدَ الْيَوْمِ ..

وَبِرَغْمِ أَنَّ درويشًا لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا ، إِلاَّ أَنَّهُ بَدَأَ يَشْعُرُ بِالتَّفَاؤُلِ مِنْ كَلاَمِ أَرْنُوب ..

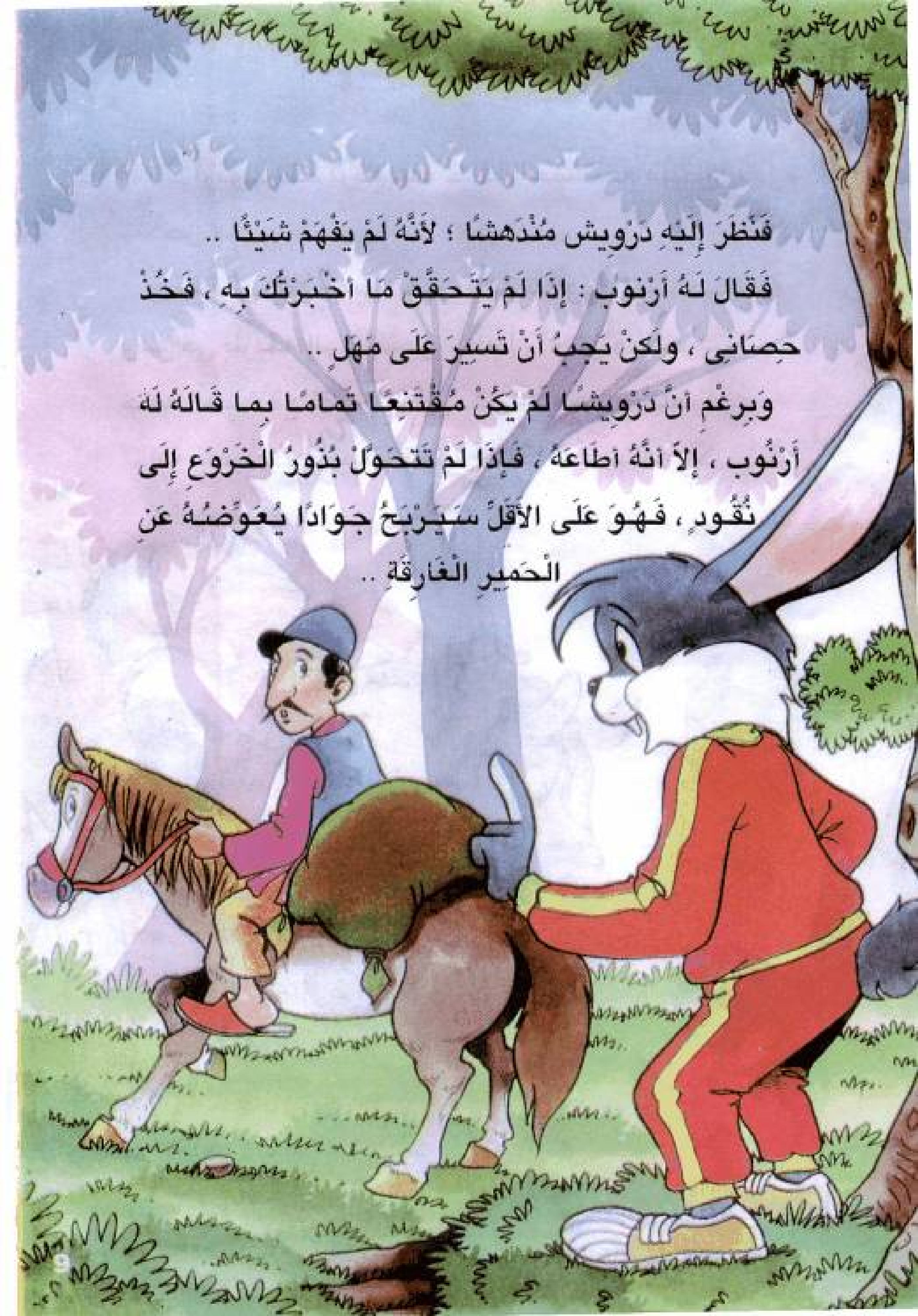
وَلَمَّا رَآهُ أَرْنُوب كَذٰلِكَ قَالَ لَهُ :

- خُذْ هٰذَا الْجِوَالَ ، وَاذْهَبْ إِلَى أَقْرَبِ مَكَانٍ تُوجَدُ فِيهِ أَشْجَارُ الْخِرْوَعِ ، وَاجْمَعْ أَكْبَرَ كَمِّيَّةٍ مِنْ بُذُورِ الْخِرْوَعِ ..



فَأَطَاعَهُ دَرْوِيشُ وَحَمَلَ الْجِوَالَ مُتَوَجِّهًا إِلَى مِنْطَقَةٍ تَنْمُو فِيهَا أَشْجَارُ الخَرْوعِ بِغَزَارَةٍ ، وبَدأَ فِى جَمْعِ الثِّمَارِ الجَافَّة ، حتَّى مَلأَ الجِوَالَ ؛ ثُمَّ حَمَلَهُ عَائِدًا إِلى أَرْنُوبٍ . ، فَبَاتَا لَيْلَتَهُمَا بِجِوارِ الْمُسْتَنْقَعِ ..

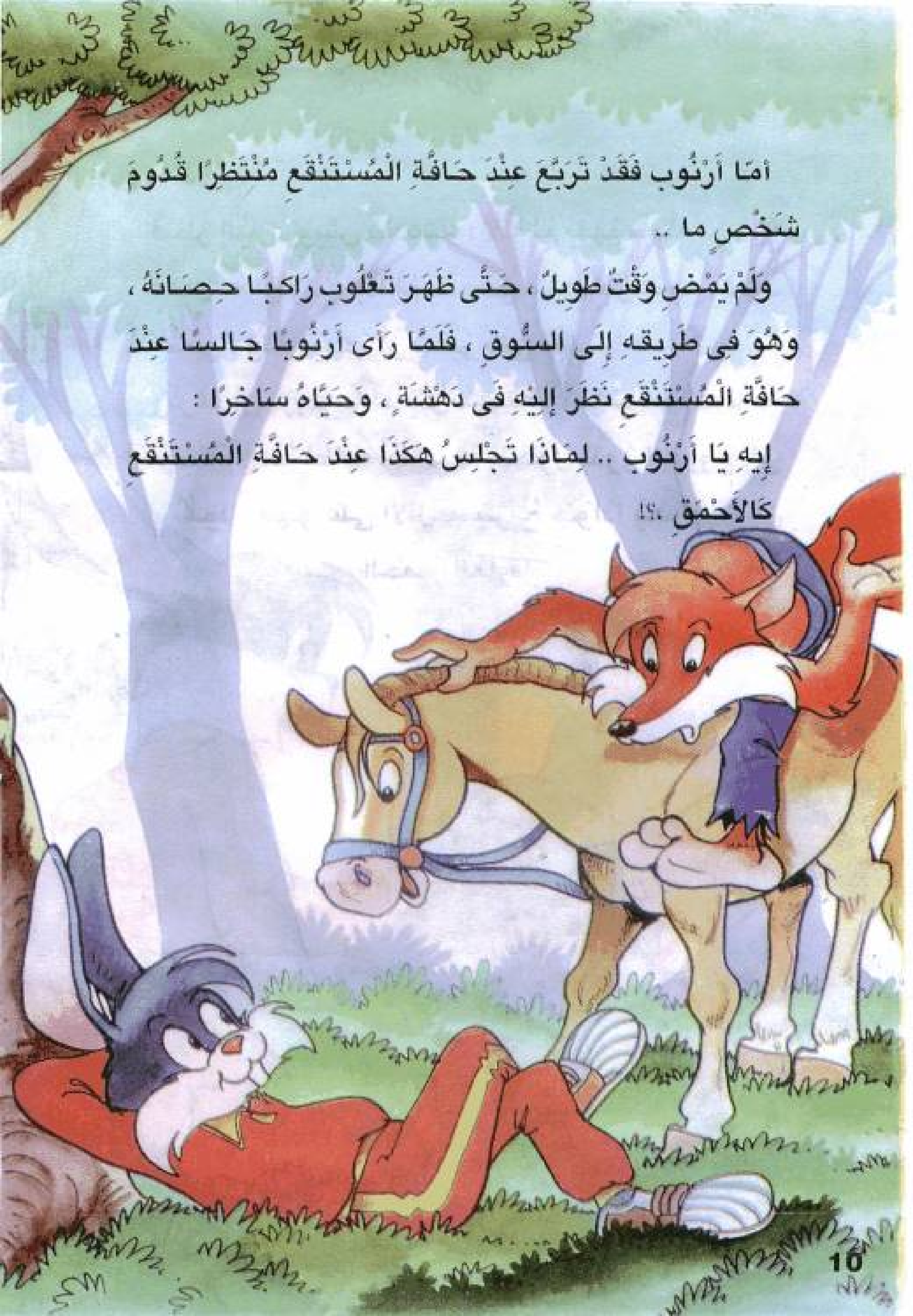
وَفِى الصَّبَاحِ ، قَالَ لَهُ أَرْنُوب : اِرْكَبْ حِصَانِى عَائِدًا إِلَى بَيْتِكَ ، وَاحْمِلْ هَذَا الْجِوَالَ مَعَكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُضَيِّعَهُ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَقْطَعَ نِصْفَ الطَّرِيقِ ، حَتَّى تَتَحَوَّلَ بُذُورُ الْخَرْوَعِ إِلى نُقُودٍ ..



فَنَظَرَ إِلَيْهِ دَرْوِيش مُنْدَهِشًا ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا ..

فَقَالَ لَهُ أَرْنُوب : إِذَا لَمْ يَتَحَقَّقْ مَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ ، فَخُذْ حِصَانِي ، ولَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَسِيرَ عَلَى مَهَلٍ ..

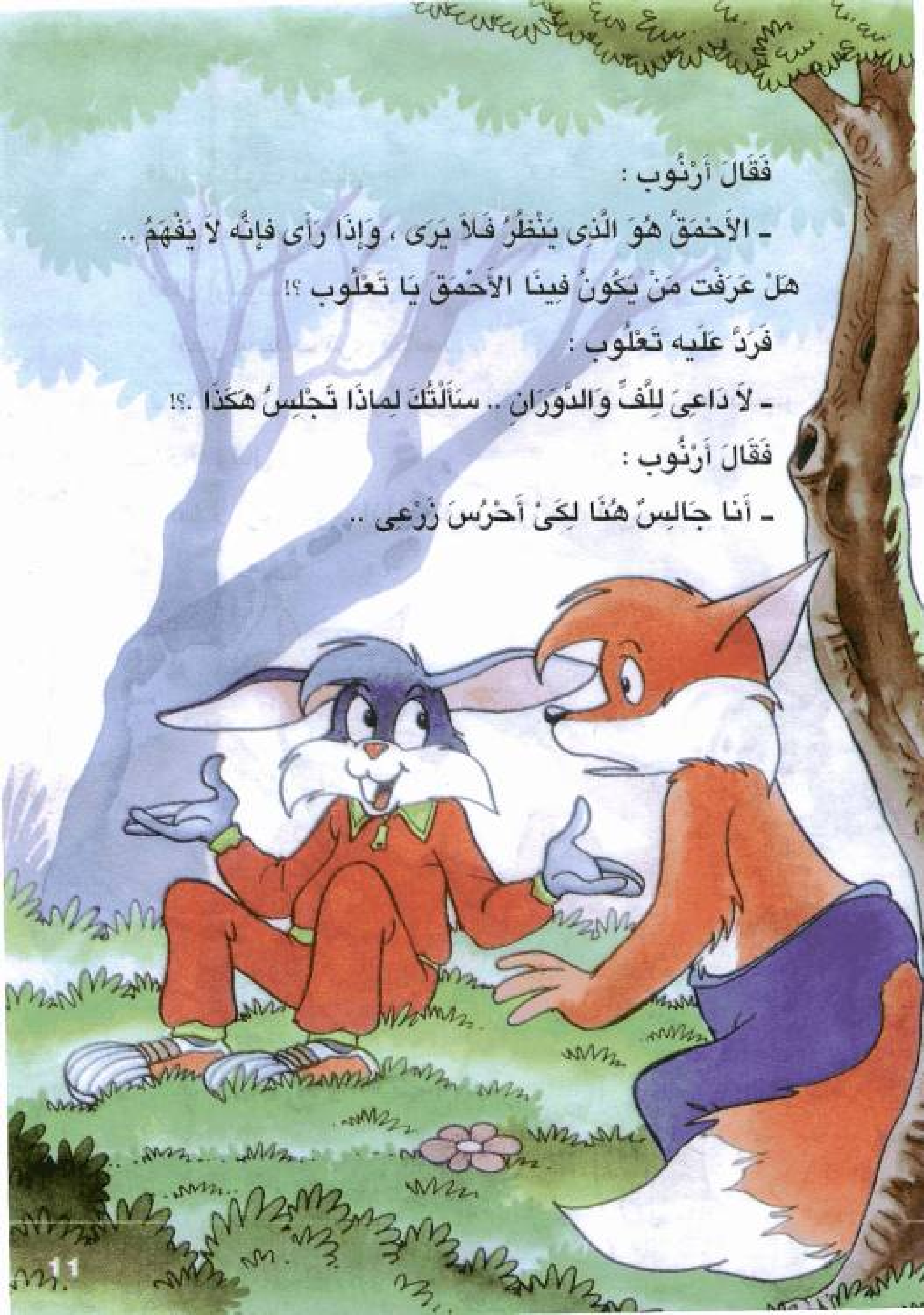
وَبِرغْمِ أَنَّ دَرْوِيشًا لَمْ يَكُنْ مُقْتَنِعًا تَمامًا بِما قَالَهُ لَه أَرْنُوب ، إلاَّ أَنَّهُ أطَاعَهُ ، فَإِذَا لَمْ تَتَحَوَّلْ بُذُورُ الْخَرْوَعِ إِلَى نُقُودٍ ، فَهُوَ عَلَى الأَقَلِّ سَيَرْبَحُ جَوَادًا يُعَوِّضُهُ عَنِ الْحَمِيرِ الْغَارِقَة ..



أمَا أَرْنُوب فَقَدْ تَرَبَّعَ عِنْدَ حَافَةِ الْمُسْتَنْقَعِ مُنْتَظِرًا قُدُومَ شَخْصٍ ما ..

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ ، حَتَّى ظَهَرَ ثَعْلُوب رَاكِبًا حِصَانَهُ ، وَهُوَ فِى طَرِيقِهِ إِلَى السُّوقِ ، فَلَمَّا رَأَى أَرْنُوبًا جَالِسًا عِنْدَ حَافَّةِ الْمُسْتَنْقَعِ نَظَرَ إِلَيْهِ فِى دَهْشَةٍ ، وَحَيَّاهُ سَاخِرًا :

إِيهٍ يَا أَرْنُوبِ .. لِمَاذَا تَجْلِسُ هَكَذَا عِنْدَ حَافَّةِ الْمُسْتَنْقَعِ كَالأَحْمَقِ ..؟!



فَقَالَ أَرْنُوبُ :

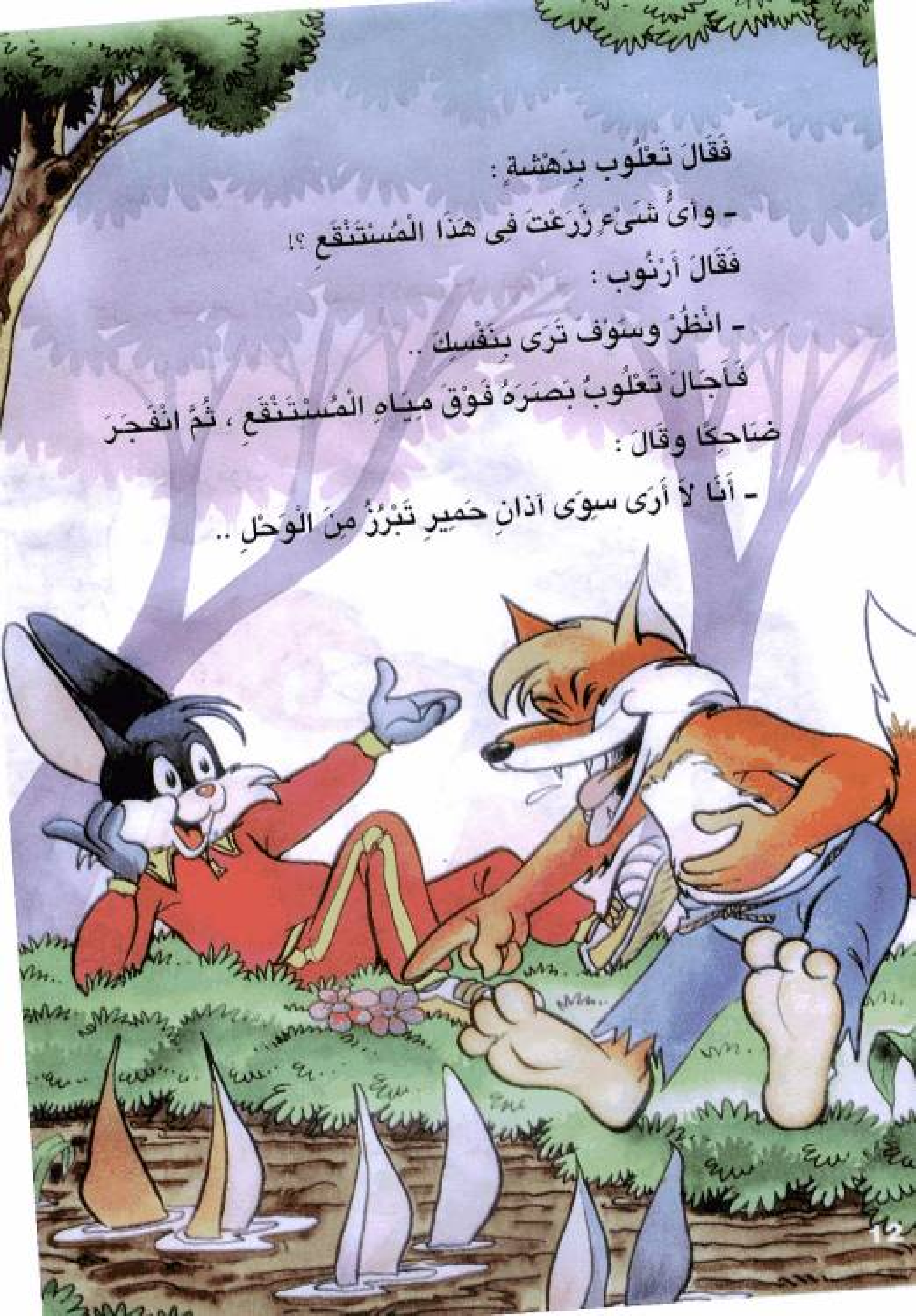
- الأَحْمَقُ هُوَ الَّذِى يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى ، وَإِذَا رَأَى فَإِنَّه لاَ يَفْهَمُ .. هَلْ عَرَفْتَ مَنْ يَكُونُ فِينَا الأَحْمَقَ يَا تَعْلُوبُ ؟!

فَرَدَّ عَلَيه تَعْلُوب :

- لاَ دَاعِيَ لِلَّفِّ وَالدَّوَرَانِ .. سَأَلْتُكَ لِمَاذَا تَجْلِسُ هَكَذَا .؟!

فَقَالَ أَرْنُوب :

- أَنَا جَالِسٌ هُنَا لِكَىْ أَحْرُسَ زَرْعِى ..



فَقَالَ تَعْلُوب بِدَهْشَةٍ :

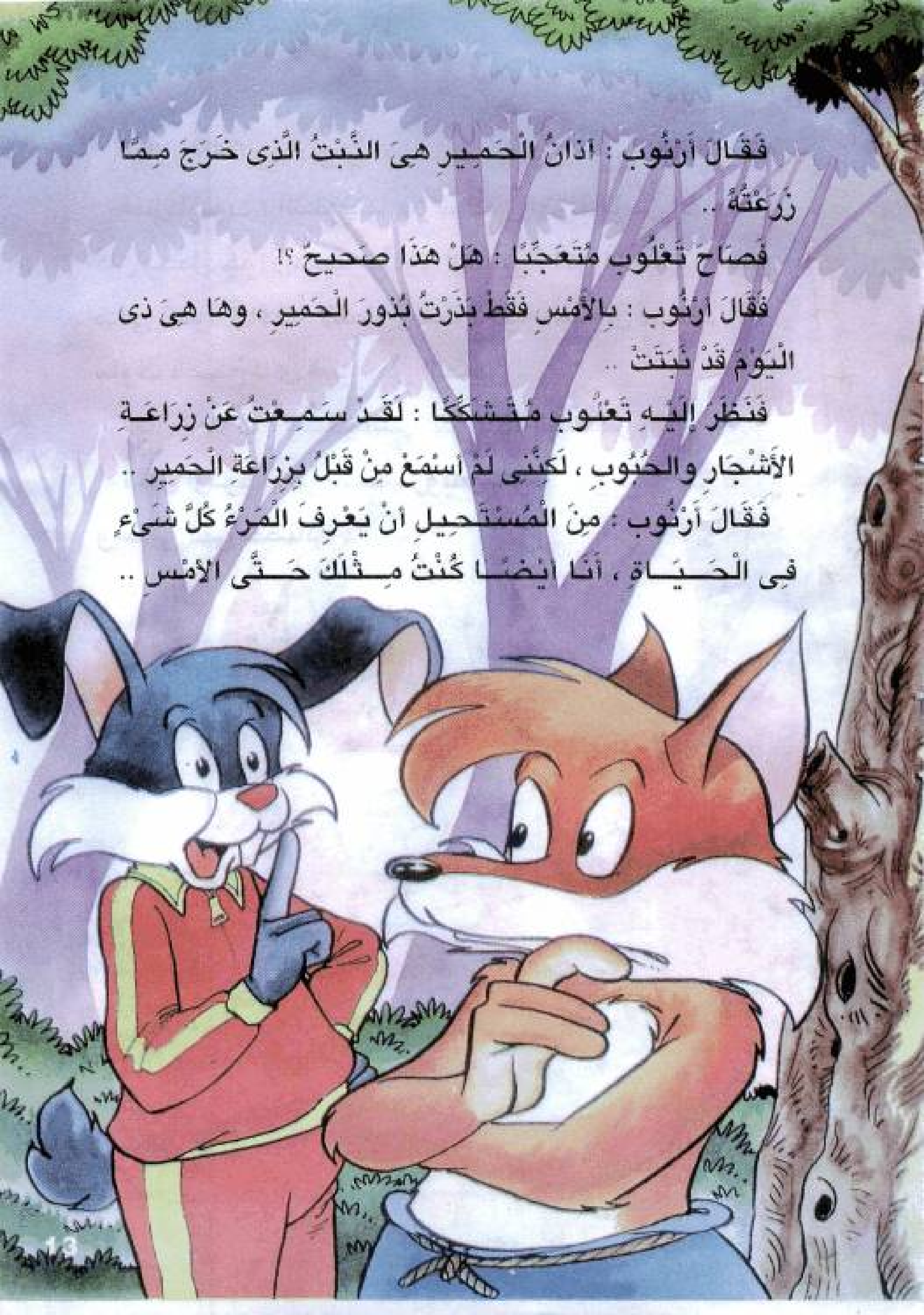
- وَأىُّ شَىْءٍ زَرَعْتَ فِى هَذَا الْمُسْتَنْقَعِ ؟!

فَقَالَ أَرْنُوب :

- انْظُرْ وَسَوْفَ تَرَى بِنَفْسِكَ ..

فَأَجَالَ تَعْلُوبُ بَصَرَهُ فَوْقَ مِيَاهِ الْمُسْتَنْقَعِ ، ثُمَّ انْفَجَرَ ضَاحِكًا وَقَالَ :

- أَنَا لاَ أَرَى سِوَى آذَانِ حَمِيرٍ تَبْرُزُ مِنَ الْوَحْلِ ..



فَقَالَ أَرْنُوب : آذانُ الْحَمِيرِ هِيَ النَّبْتُ الَّذِى خَرَجَ مِمَّا زَرَعْتُهُ ..

فَصَاحَ ثَعْلُوب مُتعَجّبًا : هَلْ هذا صَحِيحٌ ؟!

فَقَالَ أَرْنُوب : بِالأمْسِ فَقَطْ بَذَرْتُ بُذورَ الْحَمِيرِ ، وهَا هِيَ ذى الْيَوْمَ قَدْ نَبَتَتْ ..

فَنَظَرَ إلَيْهِ ثَعْلُوب مُتَشَكِّكًا : لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ زِرَاعَةِ الأَشْجَارِ والحُبُوبِ ، لَكِنَّنِى لَمْ أسْمَعْ مِنْ قَبْلُ بِزِرَاعَةِ الْحَمِيرِ ..

فَقَالَ أَرْنُوب : مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ كُلَّ شَيْءٍ فِى الْحَيَاةِ ، أنَا أيْضًا كُنْتُ مِثْلَكَ حَتَّى الأمْسِ ..

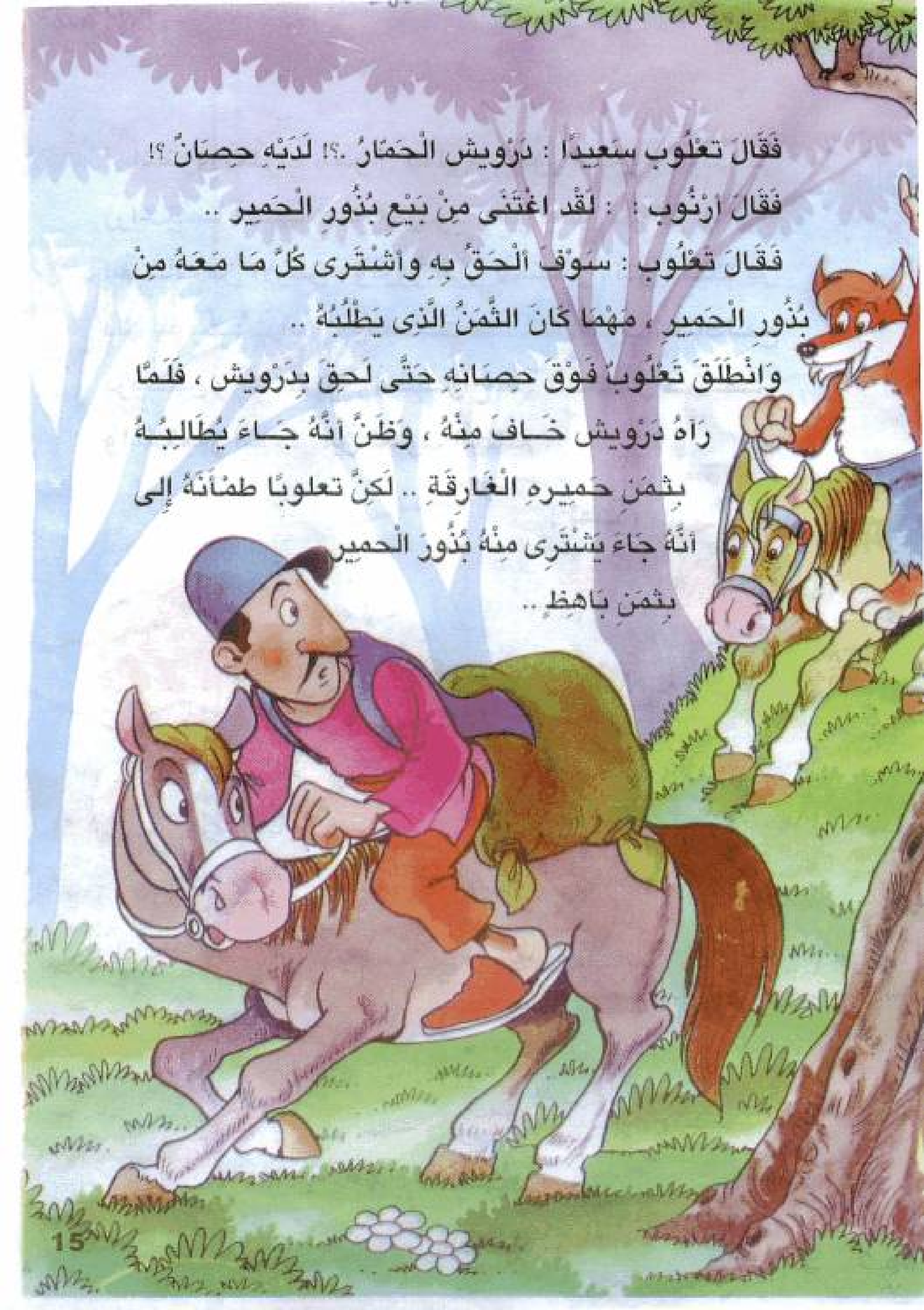


فَقَالَ لَهُ تعلوب : ومنْ أينَ حَصلتَ علَى بُذُورِ الْحَمِيرِ ؟!

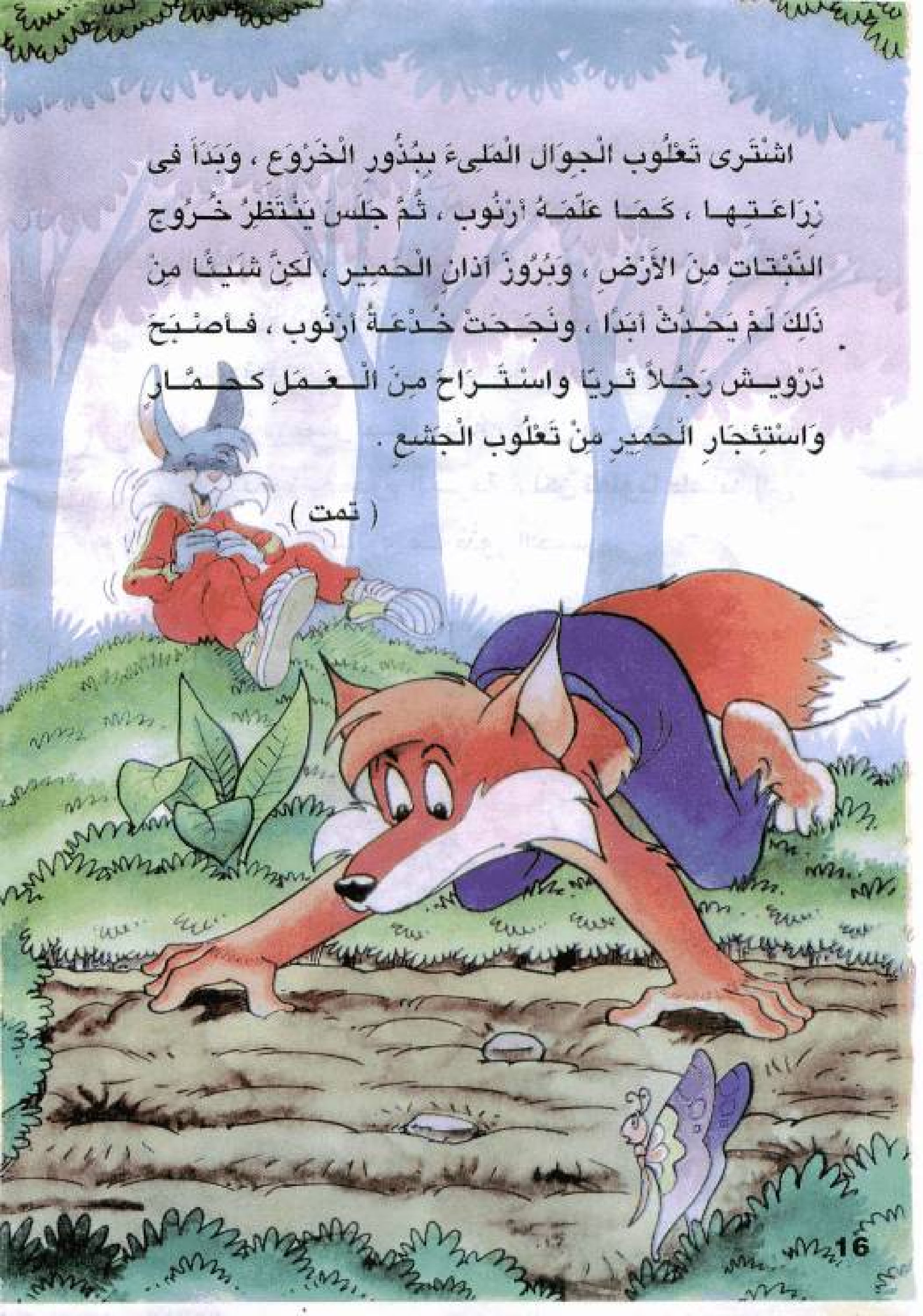
فَقَالَ أَرْنُوبِ : اشْتَرَيْتُهَا مِنْ شَخْصٍ آتى بِهَا مِنَ الْمدِينَةِ ، كَانَ يَحْمِلُ جِوَالاً مَلِيئًا بِبُذُورِ الْحَمِيرِ ، لَكِنْ لِلأَسَفِ لَمْ تَكُنْ مَعِى نُقُودٌ كَافِيَةٌ لأَشْتَرِىَ مِنْهُ بَقِيَّةَ الْجِوَالِ .. بَعْدَ أيَّامٍ سَوْفَ يُصْبِحُ لَدَىَّ قَطِيعٌ مِنَ الْحَمِيرِ ..

فَقَالَ تعْلُوبِ : وكَيْفَ أعْثُرُ عَلَى هَذَا الشَّخْصِ ؟!

فَقَالَ أرْنُوب : إنَّ اسْمَهُ دَرْوِيش ، وقَدْ كَانَ هُنَا مُنْذُ قَلِيلٍ وَمَضَى علَى حِصَانِهِ ..



فَقَالَ تعْلُوبِ سَعِيدًا : دَرْويش الْحَمَارُ .؟! لَدَيْهِ حِصَانٌ ؟!
فَقَالَ ارْنُوب : : لَقْد اغْتَنَى مِنْ بَيْعِ بُذُورِ الْحَمِير ..
فَقَالَ تعْلُوب : سَوْفَ أَلْحَقُ بِهِ وأشْتَرِى كُلَّ مَا مَعَهُ مِنْ بُذُورِ الْحَمِيرِ ، مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ الَّذِى يَطْلُبُهُ ..
وَانْطَلَقَ تَعْلُوبُ فَوْقَ حِصَانِهِ حَتَّى لَحِقَ بِدَرْويش ، فَلَمَّا رَآهُ دَرْويش خَافَ مِنْهُ ، وَظَنَّ أنَّهُ جَاءَ يُطَالِبُهُ بِثَمَنِ حَمِيرِهِ الْغَارِقَةِ .. لَكِنَّ تعلوبًا طمْأنَهُ إِلى أَنَّهُ جَاءَ يَشْتَرِى مِنْهُ بُذُورَ الْحَمِير بِثَمَنٍ بَاهِظٍ ..



اشْتَرى تَعْلُوبِ الْجِوَال الْمَلِيءَ بِبُذُورِ الْخَرْوَعِ ، وَبَدَأَ فِي زِرَاعَتِهَا ، كَمَا عَلَّمَهُ أَرْنُوب ، ثُمَّ جَلَسَ يَنْتَظِرُ خُرُوجَ النَّبَتَاتِ مِنَ الأَرْضِ ، وَبُرُوزَ آذَانِ الْحَمِيرِ ، لَكِنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ أَبَدًا ، وَنَجَحَتْ خُدْعَةُ أَرْنُوب ، فَأَصْبَحَ دَرْوِيش رَجُلاً ثَرِيًا وَاسْتَرَاحَ مِنَ الْعَمَلِ كَحِمَارٍ وَاسْتِئْجَارِ الْحَمِيرِ مِنْ تَعْلُوبِ الْجَشِعِ .

(تمت)